د. سمير فهمي كتاني

"مرايا الأمراء" كجنس أدبيّ
توضيحات حول المصطلح، وجذور جنسه الأدبيّ

1. التّسمية

تصف التّسمية "مرايا الأمراء" أو "مرايا الملوك" أحد الأجناس الادبيّة الّتي تعنى بتقديم النّصيحة للحكّام، وتشمل بطبيعة الحال الآداب والنّصائح الّتي تخصّ السّلطة الحاكمة. وعرفت التّسمية اللاتينيّة Specula Regis لوصف هذا النّوع من الأدب (وظهر هذا النّوع الأدبيّ في أوروبّا في القرون الوسطى، وعرف بالألمانيّة باسم Fürstenspieg)

وعرفت الإمبراطوريّة السّاسانيّة بصورة خاصّة هذا النّوع من الأدب المطبوع بالأخلاق، وهو يشمل القضايا الّتي تخصّ السّلطة. ورغم ذلك، لم تستخدم اللّفظة " مرآة" أو "مرايا" في اللّغة الفهلويّة لوصف هذا النّوع الأدبيّ، بل استخدمت الألفاظ " أندَرز" أو " نصيحت" لهذا الغرض.

وقد استعار هذه التّسمية كثير من المستشرقين لوصف النّوع الأدبيّ المقابل له في التّراث الإسلاميّ، الّذي كتب في معظم الحالات باللّغات الثّلاث؛ العربيّة والفارسيّة والتّركيّة، وانتشر خلال الفترة العبّاسيّة، وصارت له شعبيّة كبيرة.

غير أنّ "مرايا الأمراء" اصطلاح لم يستخدم لدى الأدباء العرب القدامى لوصف النّوع الأدبيّ الّذي نتحدّث عنه، وإن وردت لفظة "مرآة" أحيانًا في المجال الأخلاقيّ كأداة للانعكاس، فيبدو أنّ لفظة "مرآة" تعكس بشكل جيّد طبيعة هذا النّوع الأدبيّ، وذلك لورودها في بعض نصوص التّراث الكلاسيكيّ.

فقد ظهرت اللّفظة "مرآة" لدى ابن المقفّع في كتابه الأدب الصّغير، كأداة لاكتشاف عيوب المرء الشّخصيّة، وبالتّالي فهي وسيلة للإصلاح. يقول المؤلّف: "حقّ على العاقل أن يتّخذ مرآتين، فينظر من إحداهما في مساوئ نفسه، فيتصاغر بها ويصلح ما استطاع منها، وينظر في الأخرى في محاسن النّاس، فيحلّيهم بها ويأخذ ما استطاع منها".

وكذلك وردت اللّفظة "مرآة" في الأقوال والحكم الجارية على الألسن، كالقول الّذي يجعل التّفكير وإعمال العقل أمرًا معينًا على زيادة إيمان المرء: "الفكرة مرآة المؤمن، تريه حسنه من قبيحه".

ووردت اللّفظة "مرآة" كذلك في الحديث النّبويّ: "المؤمن مرآة أخيه، إذا رأى فيه عيبًا أصلحه"، ويضع الحديث الإنسان المؤمن معيارًا لضبط أخلاق نظيره المؤمن، وذلك بصورة تبادليّة بين الاثنين.

كما وردت اللّفظة "مرايا" لدى "التّوحيديّ" لتعبّر عن عمليّة انعكاس العبر والدّروس من تجارب الآخرين، وخصوصا إذا كانوا متقدّمين في الزّمان، فيقول: "تجارب المتقدّمين مرايا المتأخّرين".

وورد في كلام لبعض الحكماء: "اتّخذ من علمائك ونصحائك مرآة لطباعك وفعالك، كما تتّخذ لصورة وجهك الحديد المجلوّ، فإنّك إلى صلاح طباعك وأفعالك أحوج منك إلى تحسين صورتك، العالم النّاصح أصدق وأعوز من الحديد المجلوّ".

كما ورد لدى "لسان الدّين بن الخطيب" قوله في رسالته في السّياسة: "رعيّتك ودائع الله تعالى قِبَلَك، ومرآة العدل الّذي عليه جبَلَك".

وفي هذا الكلام ما يقرب من المفهوم الخاصّ لـ "أدب المرايا" المعتمد على النّصائح أساسًا ومضمونًا، وفيه ما يعرض النّصيحة السّياسيّة كمرايا للملك وللنّظام الحاكم.

وقد ورد في المصادر القول: "التّجربة مرآة العقل، والغرّة ثمرة الجهل". وهو يهدف إلى الرّبط ما بين التّجربة والبصيرة، مقابل الجهل والسّذاجة.

كما وردت اللّفظة "مرآة" أيضًا في كلام منسوب إلى الخليفة العبّاسيّ المأمون يوصي أولاده قائلاً: "ارجعوا فيما اشتبه عليكم من التّدبير إلى رأي الحزَمة المجرّبين، والبررة المشفقين؛ فإنّهم مرائيكم يُرونكم ما لا ترون، ويكشفون لكم أغطية ما لا تعلمون".

واستخدمت اللّفظة كذلك في الأدب الصّوفيّ، وقد اتّخذت معنى جلاء البصيرة ودقّة الحدس، وهو أمر ينعم به الله على عبده المخلص له بصدق السّؤال، فقد أورد "القشيريّ" قولاً جاء فيه: "إذا طلبت الله بالصّدق أعطاك مرآة تبصر فيها كلّ شيء من عجائب الدّنيا والآخرة".

ونسبت اللّفظة كذلك إلى أحد الحكماء ضمن قوله: "ما أبين وجوه الخير والشّرّ في مرآة العقل ما لم يصدئها الهوى".

وسبب تسمية "أدب المرايا" بهذا الاسم اشتماله على نصائح مسداة إلى السّلطان أو الأمير، بحيث

تشكّل هذه النّصائح مرايا للمنصوح لهم، فينظر هؤلاء إلى صورهم المنعكسة فيها، فيعمدون إلى تحسينها. وقد تكون هذه النّصائح موجّهة إلى "صغار الأمراء" لتعليمهم "الأدب والحكمة" أو " أدب السّلطان" و "رسومه".

وكان هذا النّوع الأدبيّ يشكّل وسيلة أساسيّة لتثقيف الحكّام والأمراء وطبقة كبار موظّفي الدّولة، تعكس لهم قواعد الأخلاق العمليّة. وهذا الموقف ينعكس من أهمّيّة منصب السّلطان في حياة الأمّة، وكذلك من مبدأ أنّ صلاح الأمّة من صلاح السّلطان. ولذا، يلاحظ أنّ الحاكم هو مركز الاهتمام في أدب المرايا عمومًا.

و"مرايا الأمراء" تسمية تطلق على النّوع الأدبيّ الّذي راج في الثّقافة الإسلاميّة خلال القرون الوسطى، اعتبارًا من القرن الثّامن الميلاديّ (الأوّل الهجريّ)، الموضوع باللّغتين العربيّة والفارسيّة. ومضمون هذا النّوع الأدبيّ نصائح ومواعظ وحكم أخلاقيّة كتبت من أجل حاكم أو أمير أو وليّ عهد معيّنين أو غير معيّنين. وتقوم هذه النّصائح عمومًا على قاعدة أخلاقيّة، ترتبط من خلالها بالدّين، وإن كانت النّصائح في مصادرها "بعيدة كلّ البعد عن أصول الإسلام"، إذ أنّها انتقلت إلى الحضارة الإسلاميّة من تراث الشّعوب الأخرى، وخصوصًا اليونانيّة والفارسيّة– الهنديّة. ومن الطّريف أن الأدباء وأرباب الأقلام المسلمين قد طوّعوا هذه النّصائح بمرونة فائقة لتصبح من دعائم الأخلاق الإسلاميّة المنشودة.

وكما ذكر آنفًا، فقد كانت هذه النّصائح قبل الإسلام منتشرة في بلاد الشّرق، ما جعلها ذات انتشار ورواج كبيرين بعد ظهور الإسلام، إذ ظهرت أحيانًا على شكل " وصايا" من حاكم إلى سلفه، أو من مستشار إلى وليّ نعمته. وما لبثت المادّة الثّقافيّة أن انتشرت في العصور الوسطى المتأخّرة، وكانت من الكثرة، بحيث أنّ مثل هذه النّصائح وضعت لحكّام رئيسيّين ومحلّيّين على حدّ سواء، إضافة إلى موظّفي الدّولة. ومن المؤكّد أنّ هؤلاء الحكّام قاموا بقراءتها.

ولم تظهر تسمية واحدة "رسميّة" ومتّفق عليها لهذا الجنس الأدبيّ، بل ظهرت عدّة تسميات متنوّعة، أبرزها: "نصائح الملوك"،، و"آداب الملوك"، و "الآداب السّلطانيّة"، و "آداب السّياسة و الحكمة السّياسيّة "، و "الكتابة الدّيوانيّة"، و "الفلسفة السّياسيّة"، و"علم السّياسة"، و"السّياسة والسّياسات الملكيّة"، "السّياسة المدنيّة"، و"التّدبير"، و"السّلوك"، و"المواعظ"، و"الدّهائيّات"، و"الحكمة العمليّة"، وغير ذلك. وقد تظهر هذه التّسميات إمّا كأسماء لمؤلّفات موضوعة في هذا النّوع الأدبيّ، أو كأوصاف للمؤلّفات ضمن مقدّماتها الّتي وضعها

مؤلّفوها، أو ضمن الحديث عن الجنس الأدبيّ في كتابات واصفيها.

وقد تنمّ التّسميات الآنفة الذّكر عن المنطلق الفكريّ لمن أطلقها، فهي تعبّر عن المنطلق الأخلاقيّ التّعامليّ أحيانًا، كالتّسميات: "نصائح الملوك" و "الآداب السّلطانيّة" و"السّياسات الملكيّة" و " التّدبير" وغيرها، وقد تنمّ عن المنطلق الدّينيّ الشّرعيّ أحيانًا أخرى، كالتّسميات: " المواعظ"، و "السّياسة الشّرعيّة".

الجذور السّاسانيّة لـ "أدب المرايا" (الأدب السّلطانيّ) وامتدادها في الثّقافة الإسلاميّة:

تربط كثير من المراجع والدّراسات بين أدب المرايا في ظلّ الحكم الإسلاميّ وبين الحضارة الفارسيّة، وبموجبها قد نشأ أدب المرايا في التّراث الأدبيّ العربيّ من الأدب السّاسانيّ قبل الإسلام. فقد عرف هذا الجنس في التّراث الأدبيّ الفارسيّ قديمًا، وهو يشكّل فرعًا من فروع "الأدب" والحضارة الفارسيّة. وقد ظلّ بعد الإسلام يحمل سمات حضاريّة فارسيّة واضحة.

وقد كان أدب المرايا يعدّ أدبًا رفيعًا وذا قيمة وتقدير عاليين في إيران وما حولها قبل الإسلام، حيث تمّ تطويره وتنميته منذ عصور قديمة.

ورغم كون التّراث الحضاريّ الفارسيّ غريبًا عن العالم الفكريّ الإسلاميّ، فإنّه سرعان ما أصبح مركّبًا هامًّا من مركّبات الحضارة الإسلاميّة، وخصوصًا في مجال الفكر السّياسيّ، فقد وصل هذا الجنس الأدبيّ إلى الأدب العربيّ بفعل الفتوحات العسكريّة الإسلاميّة، بعد أن غزا العرب المسلمون إيران عام 640 هـ، وأدّى هذا الغزو إلى تبنّي العرب الفاتحين مفاهيم إداريّة وسياسيّة جديدة.

وقد أدار العرب المسلمون سياسة البلاد المفتوحة معتمدين على خبرة موظّفي الدّولة الفرس، الّذين دخلوا في الإسلام، ولكنّهم ظلّوا يديرون البلاد وفق طريقة الإدارة السّياسيّة القديمة، تحت السّيادة الإسلاميّة. وبطبيعة الحال، تأثّر العرب بالحضارة الفارسيّة وتبنّوا منها ملامح عدّة؛ أدبيّة وفكريّة وفنّيّة. وقد ظهر هذا التّأثّر سريعا، وذلك خلال الحكم الأمويّ، إذ أبدى الحكّام الأمويّون خلفاء وولاة اهتمامًا بنماذج لطرق الإدارة الفارسيّة لدولة السّاسانيّين البائدة، وكان تولّي "الموالي" لمنصب الكتابة الدّيوانيّة وسيلة من وسائل التّأثير الفارسيّ في الفكر الإسلاميّ في العصر الأمويّ، مع أنّ عاصمة الدّولة الأمويّة سوريا تعدّ أبعد من غيرها عن فارس، وقد اهتمّ الخليفة الأمويّ هشام بن عبد الملك بالتّراث السّياسيّ الفارسيّ، فأمر كاتبه أن يترجم

كتابًا حول الملوك الفرس إلى اللّغة العربيّة.

ومع استلام العبّاسيّين الحكم، ظهر العنصر الفارسيّ في إدارة الدّولة ومؤسّساتها بصورة أشدّ وضوحًا، فقد أعيد استخدام الألقاب السّاسانيّة القديمة لبعض أرباب المناصب، وتمّ إنشاء مهامّ إداريّة كانت معروفة في الدّولة السّاسانيّة.

وكان ما يبرّر عمليّة نقل الثّقافة والحضارة الفارسيّة إلى التّراث العربيّ أمران؛ تطوّر أوضاع المجتمع العربيّ لتصبح في نفس اتّجاه المجتمع الفارسيّ (حياة الحضر، والانتقال من دولة الخلافة إلى دولة السّياسة والسّلطان)، وانخراط المجتمع العربيّ في المجتمع الفارسيّ بحكم التّطوّرات التّاريخيّة (استلام الفرس مناصب قياديّة في إدارة البلاد).

ونشأ الأدب السّلطانيّ (أو المرايا) مع بداية ظهور الدّولة العبّاسيّة، إذ أنّه ارتبط بصورة وثيقة بهيمنة العنصر الفارسيّ المتمثّلة باستعانة الخلفاء العبّاسيّين بالموالي في إدارة الدّولة، الّذين كانت لهم – بطبيعة الحال – نزعة وطنيّة وقوميّة جعلت مثقّفيهم يحرصون على نقل تراث آبائهم إلى عصرهم.

ويتحدّث بعض الباحثين عن نقطة التّحوّل السّياسيّة الّتي أدّت إلى نشوء الأدب السّلطانيّ، ويحدّدون هذا النّقطة بما يسمّى "انقلاب الخلافة إلى ملك"، الّذي أدّى إلى تغيير في الفكر السّياسيّ، فبعد أن كان هذا الفكر روحانيًّا في الأساس، أصبح ينزع نحو المادّيّة والسّياسة العمليّة.

ويتّصل مفهوم المُلك في الصّدر الأوّل للإسلام بمعاني السّلطة والاستبداد، وتستدعي في الأذهان صور ومظاهر العظمة المادّيّة المميّزة للملوك والحكّام.

ولا شكّ أنّ بداية تحوّل الخلافة إلى ملك تتمثّل في استيلاء "معاوية بن أبي سفيان" الخليفة الأمويّ الأوّل على مقاليد الحكم، وقد صاحب هذا التّحوّل تغييرات جذريّة على مؤسّسة الخلافة، تتمثّل في اتّخاذ الخليفة للحجّاب، وفي تغيير علاقته بالرّعيّة، وفي تعظيم مركز "الخليفة" ليكتسي بأبّهة الملك الدّنيويّ، بعد أن كان مكتفيًا بهالة من الرّوحانيّة الدّينيّة.

وقد بدا أنّ الحكم الأمويّ الّذي يرمز إليه الخليفة معاوية قد بدأ سياسة جديدة، تتمثّل في تغيير طابع الخلافة الّذي كان سائدًا قبل العصر الأمويّ، ونعني به طابع الحكم الدّينيّ الّذي صبغ حكم كلّ من الخلفاء

الرّاشدين الأربعة. فمعاوية أعلن للنّاس عن تحوّله عن مسار السّياسة الدّينيّة الضّيّق إلى المسار "البراغماتيّ" الواسع. وهذا ينسجم مع سياسة معاوية المعروفة بمرونتها وحسن إحكامها، ويعبّر عنها قوله المشهور: "لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أنّ بيني وبين النّاس شعرة ما انقطعت. قيل: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدّوها خلّيتها، وإذا خلّوها مددتها".

ورغم المعنى السّلبيّ الّذي يقترن بلفظة "ملك" عند مقارنتها بلفظة "خلافة"، فإنّ هناك معنى إيجابيًّا قد يتضمّنه "الملك"، وهو إعادة بناء دولة الإسلام الّتي كادت تنقرض بفعل الفتن الّتي عصفت به في زمن حكم الخليفتين الرّاشدين؛ عثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب. فعندما أقام "معاوية" دولة الأمويّين قام بتوحيد الدّولة ورصّ صفوفها أمام "الخارجين على الشّرعيّة والمتمرّدين" من الخوارج والشّيعة.

ويحدّد "عبد الرّحمن بدوي" نقطة التّحوّل هذه معتبرًا بأنّها تتمثّل في استيلاء العبّاسيّين على مقاليد الحكم، وتوجّههم إلى التّراث السّياسيّ السّاسانيّ يستلهمونه وينقلون عنه "مرايا الأمراء"، وبهذا تسنح الفرصة للفرس ولأوّل مرّة في ظل الإسلام لتولّي بعض شؤون الحكم، كالمناصب المدنيّة والعسكريّة .

إلاّ أنّ أوّل مظاهر تحوّل الخلافة إلى ملك كان خلال فترة الخلفاء الرّاشدين، وكانت نظرة الخليفة آنذاك – عمر بن الخطّاب– إلى مظاهر هذا التّحوّل، نظرة منكرة، لما رأت فيه من التّخلّف والارتداد إلى عصر المجوس المادّيّ البعيد عن روحانيّة الإسلام. فيروي "ابن خلدون" أنّه "لمّا لقي معاوية عمر بن الخطّاب عند قدومه إلى الشّام في أبّهة الملك وزينة من العبيد والعدّة، استنكر ذلك وقال: أكسرويّة يا معاوية؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إنّا في ثغر تجاه العدوّ، وبنا إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة. فلم يخطّئه لما احتجّ عليه بمقصد من مقاصد الحقّ والدّين". وكان عمر أراد بالكسرويّة ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظّلم والبغي. ويذكر "ابن خلدون" هذه الحادثة كدليل على إجازة الشّرع (المتمثّل بالخليفة عمر ابن الخطّاب) لمظاهر أبّهة الملك، إذا كانت هذه المظاهر يقصد بها وجه الله.

غير أنّ "ابن خلدون" نفسه يصف معاوية بأنّه أوّل خلفاء المغالبة والعصبيّة الّذين يعبّر عنهم أهل الأهواء بالملوك، فالملك لا ينافي الخلافة ولا النّبوّة. كما أنّ "ابن خلدون" يعتبر "معاوية" من الخلفاء الرّاشدين، رافضًا اعتباره من الملوك، إلاّ أنّه في الوقت نفسه يبرّر سبب اعتبار المؤرّخين له من الملوك بكونه منشئ السّلالة الأمويّة، وأبًا لمن جاء بعده من خلفاء بني أميّة.

إنّ النّظام السّياسيّ في الدّولة الأمويّة كان متأثّرًا بالنّظام الّذي كان سائدًا في الدّولة الفارسيّة (وبصورة أقلّ بنظام حكم الدّولة البيزنطيّة)، وقد بدأ معاوية النّظام الجديد في كثير من الحيطة والحذر، وذلك حين أوحى إلى عمّاله على الأمصار بتمهيد السّبيل لأخذ البيعة لابنه يزيد، مبتدئًا بذلك نظام توريث الملك، وهو ما كان سائدًا قبل الإسلام في الحضارات المتاخمة، ولم يظهر في نظام الإسلام السّياسيّ منذ نشأته إلى نهاية الحكم الرّاشديّ. وازداد اهتمام الخلفاء الأمويّين المتأخّرين، اعتبارًا من عهد "عبد الملك بن مروان" بالتّاريخ القديم، وخصوصًا في مجال إدارة الحكم، ويتجلّى هذا الاهتمام بتعريب إدارة الدّولة والدّواوين، وبالانتقال التّدريجيّ للنّظام البيروقراطيّ الإداريّ، وإلى خلق نظام حكم جديد يمتاز بنشأة طبقات بيروقراطيّة جديدة، وكذلك إلى ظهور كتّاب ذوي نمط عمل جديد، حيث أصبح الكتّاب والموظّفون ذوي مهارات احترافيّة عالية بفضل تدريبهم، تجلّت في سلوكيّاهم الرّفيعة (الّتي يمكننا تشبيهها بالسّلوكيّات البرجوازيّة) خلال تأدية عملهم كموظّفي بلاط، وفي نمط الكتابة الدّيوانيّة الموجّهة إلى الحكّام وكبار الموظّفين الحكوميّين.

وقد نقل الكّتاب عدّة كتابات فارسيّة تدور في فلك ما يعرف بـ"مرايا الأمراء" إلى الأدب العربيّ، ترجمة وتعريبًا. ويعدّ ابن المقفّع (ت حوالي 142هـ/ 759م) أبرز هؤلاء النّاقلين والمترجمين عن الفارسيّة، فقد قام "ابن المقفّع" بترجمة كلّ من "كليلة ودمنة"، و "خداينامه" (أي كتاب الملوك) ، و "آئين نامه"، و "مزدك"، و"التّاج"، ورسالة "تنسر". هذا إضافة إلى كتبه الّتي وضعها بنفسه، وهي أيضًا تشير إلى الفكر الفارسيّ المتمثّل في المادّة الحكميّة والأخلاقيّة المعهودة عن حكماء الفرس وكتّابهم، مثل "الأدب الكبير"، و"الأدب الصّغير" ، و"رسالة في الصّحابة". وكانت الموادّ المتضمّنة في هذه التّآليف مستقاة من التّراث السّياسيّ الفارسيّ، ولكنّها صيغت صياغة جديدة موافقة للقيم العربيّة والإسلاميّة.

كما نقل "الحسن بن سهل" كتاب "جاويدان خرد" من الفارسيّة إلى العربيّة – وفق رواية "مسكويه" مصنّف الكتاب–.

وقد كثر تداول المؤلّفات السّياسيّة الفارسيّة في صدر الدّولة العبّاسيّة، حتّى صار الفرس يخصّون بالتّفوّق في السّياسة في خصومة الشّعوبيّة. وقد كان من أهداف الأدباء الفرس من الاستشهاد بأدب الحكم والمرايا الفارسيّ تمجيد القوميّة الفارسيّة، عندما لم يكن بإمكانهم الإشادة بالدّيانة المجوسيّة أو بالمعتقدات السّاسانيّة، فلم يجدوا أبرز وأفضل من هذا الأدب يشيدون بواسطته بمآثر الآباء والأجداد.

وقد استندت مؤلّفات "مرايا الأمراء" الفارسيّة بشكل كبير إلى نوع أدبيّ فارسيّ قديم؛ "أندرز"، وهو أدب يتناول موضوع الحكمة والأخلاق، وقد وضع باللّغة الفهلويّة القديمة، ويعدّ من الأدب الرّفيع الموجّه إلى الطّبقات العليا في المجتمع الفارسيّ، بقصد توجيه أبناء هذه الطّبقة لقواعد التّصرّف والسّلوك السّويّين سواء في حياتهم العمليّة – كموظّفين رسميّين في الدّولة– أو كأناس عاديّين. واشتمل هذا النّوع الأدبيّ على مواعظ حكميّة عمليّة تتّصل بالمهامّ الرّسميّة، إلى جانب مواعظ نظريّة حول السّلوك الفرديّ مع العائلة والمعارف والمقرّبين، إضافة إلى مواعظ ووصايا لملوك موجّهة لأولياء عهدهم، ذات صبغة دينيّة روحانيّة.

وقد ظهرت موادّ ومقطوعات مترجمة من أدب "الأندرز" الفارسيّ في المصنّفات الأدبيّة الكبرى، وتظهر في هذه الموادّ ملامح من "أدب المرايا"، كالأمثال، والحكايات الرّمزيّة، والمواعظ، والحكم، والنّصائح السّياسيّة. وقد تختلط في هذه المواعظ والأمثال والحكايات شخصيّات فارسيّة وإسلاميّة معًا، تقريبًا دون أيّ اعتبار لقوميّات وديانات هذه الشّخصيّات .

إن بداية ظهور أدب المرايا (والنّصيحة السّياسيّة) في الحضارة العربيّة كانت من خلال وصايا قصيرة وضعها الخلفاء، من الفترات المبكّرة للحكم الإسلاميّ، لولاة عهدهم وورثتهم أو لعمّالهم.

3. المؤثّرات اليونانيّة في أدب المرايا:

إذا كان أدب المرايا العربيّ قد اتّخذ نقطة انطلاقه من الجذور الفارسيّة لهذا النّوع الأدبيّ، فإنّ طبيعته كما وصلت إلينا لم تقتصر فقط على الملامح الفارسيّة، وإنّما صقلتها أيضًا مؤثّرات يونانيّة بشكل ما، كان من ورائها كتّاب ومفكّرون ممّن يمثّلون الفلسفة اليونانيّة.

إنّ التّراث اليونانيّ كان قد تسرّب إلى الحضارة العربيّة منذ فترة مبكّرة نسبيًّا، إذ تدلّنا الرّسائل الّتي سطّرها كتّاب بعض الخلفاء الأمويّين، وخاصّة "سالم" مولى هشام بن عبد الملك، و"عبد الحميد الكاتب"، على تأثّر هذين الكاتبين بالتّراث الحكميّ اليونانيّ.

ويتجسّد هذا التّأثّر في بعض المضامين الّتي تحتويها رسائلهما، ولكن يتجسّد هذا التّأثّر بصورة خاصّة بترجمة "سالم" رسائل منسوبة إلى أرسطو، من اليونانيّة إلى العربيّة، وهي رسائل تدور حول السّياسة.

ومن اللاّفت أن يكون معظم الكتّاب في الدّولة الأمويّة، وكذلك معظم موظّفي الإدارة في جهاز

الدّولة البيروقراطيّ من غير العرب، وأحيانًا من غير المسلمين، وهم كتّاب ذوو خبرات إداريّة سابقة مارسوها عندما اشتغلوا في خدمة أنظمة الحكم غير الإسلاميّة في كلّ من الشّام والعراق ومصر. وكان من السّهل على هؤلاء الكتّاب غير العرب وغير المسلمين أن ينقلوا النّظم الإداريّة القديمة (الهلينيّة والفارسيّة) إلى الدّولة الأمويّة الجديدة، بل وسهّلوا تعريبها واستيعابها في الحضارة العربيّة الإسلاميّة الّتي سارعت إلى تبنّيها.

إنّ احتواء الكتابة الدّيوانيّة على ملامح ثقافيّة يونانيّة، وانتشار هذه الملامح فيما بعد خلال العصر العبّاسيّ، يجسّدان نوعًا من النّهضة الفكريّة الإنسانيّة (Humanism)، كان لكلّ من مدرسة أرسطو ومدرسة أفلاطون فيها الحظّ الأوفر في النّشاط الفكريّ الإسلاميّ. ويشير Kramer إلى سيادة مدرسة أرسطو في الفكر الفلسفيّ، وفي الفكر السّياسيّ سيطرت مدرسة أفلاطون، وفي مجال الميتافيزيقا (ما وراء الطّبيعة) تأثّر المفكّرون المسلمون بكلّ من المدرستين.

وإذا كان "سالم" كاتب "هشام بن عبد الملك" قد ترجم رسائل لـ "أرسطو" في السّياسة، فإنّه يبدو أنّ "عبد الحميد الكاتب" كان متأثّرًا هو الآخر إلى حدّ كبير بالرّسائل المنسوبة إلى أرسطو، وخصوصًا في رسالته إلى "عبد الله بن مروان" وليّ عهد الخليفة الأمويّ الأخير "مروان بن محمّد"، إذ أنّ موضوع هذه الرّسالة هو السّياسة الحربيّة، وهو موضوع غريب عن الكتابة الدّيوانيّة لدى الخلفاء المسلمين في هذه الحقبة المبكّرة (القرن الثّاني الهجريّ)، وموضوعها، كما يرى بعض الباحثين، مشابه كثيرًا لرسائل "أرسطو".

غير أنّ تمثّل التّراث اليونانيّ في الحضارة الإسلاميّة لم يكن أكثر من ظاهرة هامشيّة إذا قورن بمدى تمثّل التّراث الفارسيّ فيها، وذلك لأنّ العرب المسلمين تمكّنوا من احتلال الضّواحي الشّرقيّة فقط من الإمبراطوريّة البيزنطيّة، بينما هم استطاعوا شمل كلّ فارس وما جاورها من أقطار في وسط آسيا تحت سيطرتهم. كما أنّ اليونانيّين أنفسهم، سكّان المناطق التّابعة للإمبراطوريّة البيزنطيّة الّتي سقطت بأيدي العرب الفاتحين، لم يكن لهم نفوذ بارز يذكر بين أوساط الخلفاء الأمويّين، لا في العاصمة دمشق ولا في المناطق الرّيفيّة التّابعة لها، بل إنّ هؤلاء كانوا قد غادروا كلاّ من سوريا ومصر عندما سيطر العرب عليهما.

ويرى "إحسان عبّاس" أنّ التّنافس بين أنصار كلّ من الثّقافة الفارسيّة ونظيرتها اليونانيّة احتدم خلال العصر الأمويّ، ولم يكن "سالم" الكاتب الأمويّ قادرًا على التّغلّب على التّيّار الّذي كان يمثّله "ابن المقفّع"؛

تيّار الثّقافة الفارسيّة، حيث أخذ هذا الأخير – كما قدّمنا في الصّفحات السّابقة من دراستنا هذه – ينقل الثّقافة الفارسيّة إلى الحضارة العربيّة – الإسلاميّة. ويبدو أنّ الغلبة كانت لصالح الثّقافة الفارسيّة. وبما أنّ معظم المنقولات عن الفارسيّة كانت تتّصل بالسّياسة وما يتعلّق بها من سير الملوك وآداب الآيين، فقد ثار الانطباع بأنّ "السّياسة" فنّ مقصور على الفرس.

ولا شكّ أنّ للفرس المسلمين دورًا بارزًا في غلبة الحضارة الفارسيّة على نظيرتها اليونانيّة خلال الفترة الأولى من حكم الأسرة العبّاسيّة، وخصوصًا في عهد "المأمون"، إذ كان معظم من حوله من أرباب السّياسة من الفرس، كما أنّه كان بنفسه متأثّرًا بالثّقافة الفارسيّة، فنراه يأمر مؤدّب ابنه ووليّ عهده "الواثق" أن يعلّمه "عهد أردشير"، ويحفّظه "كليلة ودمنة".

ويرى "عبد الرّحمن بدوي" أنّ سبب ضعف قوّة انتشار الثّقافة اليونانيّة في الحضارة الإسلاميّة يعود إلى أنّ أهل السّنّة والجمهور من العلماء قد نفروا من الثّقافة اليونانيّة، لأنّه تتعارض مع طبيعة الفهم الإسلاميّ الروحانيّ للأشياء. وكانت بداية هذا النّفور من العلوم الرّياضيّة والهندسيّة، ثمّ استفحل هذا النّفور من علم الفلسفة. لذا، فقد كان من السّهل على الثّقافة العربيّة لاحقًا "هضم" الأفلاطونيّة المحدّثة، وهي مزيج من الثّقافة اليونانيّة والثّقافة الشّرقيّة، إلاّ أنّ نصيب الأخيرة فيه أكبر من الأولى. كما أنّ التّيّار الدّينيّ المركزيّ في الإسلام (وهو تيّار أهل السّنّة) كان يميل إلى النّفور من الفلاسفة، ويعدّ نشاطهم نوعًا من الهرطقة والزّندقة.

ومن أبرز ممثّلي تيّار أهل السّنّة في العصر العبّاسيّ الأوّل "ابن قتيبة"، ونراه ينتقد المشتغلين بالفلسفة اليونانيّة من كتّاب العصر انتقادًا واضحًا، لا يخلو من سخرية أحيانًا.

كما أنّ "التّوحيديّ" وهو من كتّاب القرن الرّابع، وقف في صفّ الرّافضين للثّقافة اليونانيّة، فهي في نظره لا تشتمل على الجانب الرّوحانيّ الموجود في الشّريعة، كما انّ اليونانيّين لم يرجعوا في تدبير مصالحهم إلى القوانين الإلهيّة الرّوحانيّة، بل اعتمدوا كلّيًا على حصيلة علم حكمائهم يبتكرون لهم قوانين ومناهج يسيرون عليها في رخائهم وملمّاتهم.

غير أنّ أقدم أثر بيزنطيّ يُتوقّع أن يكون قد وصل إلى العرب يتمثّل في كتاب يفترض أنّه وقع في أيدي العرب الفاتحين خلال حملة عسكريّة قاموا بها قرب القسطنطينيّة، وكان ذلك خلال حكم الخليفة الأمويّ

"معاويّة".

وبشكل لافت للانتباه، انتشرت الكتابات السّياسيّة المترجمة عن اليونانيّة في العراق بالذّات، وهو الأبعد عن موطن الحضارة اليونانيّة بالمقارنة مع كلّ من سوريا ومصر، حيث ظهر الفلاسفة العرب المتأثّرون بالتّراث اليونانيّ أكثر من أيّ مكان آخر، وتردّ Crone هذا الأمر إلى سعي الخلافة العبّاسيّة في العراق إلى ترجمة الآثار اليونانيّة، حيث أبدى عدد من الخلفاء (وكذلك الأمراء وولاة العهد وموظّفو البلاط الملكيّ) اهتمامهم بالحضارة اليونانيّة، وقرّبوا بعض العلماء والفلاسفة اليونان.

وقد نشطت حركة التّرجمة عن اليونانيّة، وخصوصًا في مجال الفلسفة، منتصف القرن التّاسع للميلاد، وذلك عندما قام الكنديّ (ت260هـ/873 م) بجمع عدد من المترجمين والمفكّرين والعلماء، بغية نقل الموروث الفلسفيّ اليونانيّ إلى الحضارة العربيّة – الإسلاميّة، وبشكل منظّم وممنهج.

أمّا فيما يتعلّق بالحكم السّياسيّة المأخوذة عن حضارة اليونان، فقد تمثّلت هذه الحكم في الأدب العربيّ بصورة واضحة أحيانًا، وذلك عندما تنسب الحكمة إلى "أرسطو" أو "أفلاطون" مثلاً، ولكنّها أيضًا كانت لا تنسب في أحيان أخرى كثيرة إلى حكيم يونانيّ بعينه، ممّا يثير جوًّا من التّعتيم على الأصل اليونانيّ للحكمة، وهذا التّعتيم قد يكون نابعًا ممّا ذكر آنفًا من أنّ تيّار أهل السّنّة كان ينفر من الثّقافة اليونانيّة للأسباب المذكورة.

كما أنّ شخصيّة "الإسكندر" قد حظيت بتغطية مكثّفة من قبل كتّاب "الأدب"، فقد نسبت إليه حكم وأقوال كثيرة. ولم يكن الكتّاب التّقليديّون – أمثال أهل السّنّة – يتجنّبون الخوض في أخبار "الإسكندر" وأقواله، ومنهم "ابن قتيبة" نفسه، الّذي يهاجم أتباع الثّقافة اليونانيّة.

وقد قام "إحسان عبّاس" باستعراض لأبرز المصادر العربيّة الّتي تعتبر المصادر الرّئيسيّة لنشر الحكمة السّياسيّة اليونانيّة في التّراث العربيّ.

النّتائج والتّوصيات:

يتّضح لنا أنّ أدب المرايا يعتبر أحد الأنواع الأدبيّة المستقلّة في التّراث الإسلاميّ في القرون الوسطى، رغم أنّ التّسمية "مرايا" لم تكن معروفة أو مستخدمة لدى الكتّاب والأدباء. وليس أدب المرايا أدبًا مستقلاً فحسب، بل إنّه واسع الانتشار بأشكال عدّة، وتحت مسمّيات متعدّدة، يجمع بينها المضمون الّذي يعنى بتقديم النّصائح العمليّة والأخلاقيّة للحكّام على اختلاف مناصبهم، أو لولاة عهدهم قبل أن يصبحوا حكّامًا فعليّين.

ورأينا أنّ جذور هذا النّوع الأدبيّ ممتدّة إلى الثّقافات والحضارات الّتي كانت سائدة قبل ظهور الإسلام، وتحديدًا الثّقافة الفارسيّة والثّقافة اليونانيّة، حيث أنّ كثيرًا من مضامين أدب المرايا الإسلاميّ تنطلق من هاتين الثّقافتين، وإن كانت تنطلق من الثّقافة الفارسيّة بصورة أوضح

إنّ كلاً من الانفتاح الفكريّ والحرّيّة الفكريّة الّذين سادا أوساط الفكر الإسلاميّ في القرون الوسطى، ساهما بشكل حاسم في التّلاقح الفكريّ في مجال النّصيحة السّياسيّة الموجّهة للحكّام، بالإضافة إلى أنّ الخلافة الإسلاميّة قامت على أنقاض حكم إمبراطوريّات وممالك غير عربيّة، ومن الطّبيعيّ أن تعتمد على أنظمة الإدارة العمليّة الّتي كانت معتمدة فيها قبل أن تزول.

لا شكّ في أنّ المزيد من الأبحاث الّتي قد تجرى في المستقبل في "أدب المرايا" قد يكون من شأنها تسليط المزيد من الضّوء على مبادئ الحكم لدى الخلافة الإسلاميّة عبر عصورها من جهة، ولكنّه من جهة أخرى يساهم في دراسة التّأثيرات المتبادلة بين الثّقافات الإنسانيّة في القرون الوسطى.